المحاضرة الخامسة :

الصورة الشعرية في الشعر العربي المعاصر

1- مفهوم الصورة الشعرية وأنواعها في الشعر العربي المعاصر :

تعد الصورة الشعرية عنصرا مهما في بناء القصيدة عامة ، والقصيدة المعاصرة بشكل خاص ، إذ أدرك الشاعر العربي المعاصر أبعادها النفسية والفكرية ، وعلاقتها الوطيدة بالتجربة الشعرية ، فلم تعد مجرّد تسجيل للأشياء كما في الشعر القديم إنما أصبحت انفعالا بها ، ولم يعد القصد منها إيضاح المعنى وتأكيده في الذهن ، بل أصبحت هي نفسها حالة شعرية تتبع من أعماقها المعاني الموحاة من الشاعر والمتخيلة من القارئ لما فيها من دفق شعوري فياض.

لذلك نبه أدونيس إلى ضرورة التمييز وعدم الخلط بين التشبيــه والصورة ، إذ يجمع التشبيه بين طرفين محسوسين فيبقي على الجسر الممدود بين الأشياء ، ويصبح العالم من خلاله مشهدا ، أما الصورة فتهدم هذا الجسر فتكون مفاجأة ودهشا – تكون رؤيا ، أي تغييرا في نظام التعبير عن هذه الأشياء، فهو يعطي تصورا مختلفا للصورة الشعرية عما كانت عليه في التراث البلاغي العربي باستبعاده التشبيه ، باعتبار أنه يجمع بين طرفين متقاربين ، وهو ما ذهب إليه بعض النقاد القدماء كالآمدي والقاضي الجرجاني والمرزوقي في صياغة كل منهم لعمود الشعر، غير أن عبد القاهر الجرجاني قد أخرج الصورة الشعرية من ذلك التصور الضيق ، بأن اشترط تباعد طرفي التشبيه باعتباره نوعا من أنواعها ، يقول: " وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ".

إن التصور الذي قدمه أدونيس للتشبيه لا يبتعد عن تصور عبد القاهر الجرجاني، ولعله متأثر في استبعاده من دائرة الصورة الشعرية ببعض الغربيين ، وهو ما ألح عليه ميشال لوغرن Michel lu Guern فالتشبيه في معناه المختزل ليس إلا صورة ، ولا يقارن إلا بين وقائع متشابهة ، وذهب روفردي Reverdi إلى أن الصورة إبداع صاف ، ولا يمكن

أن تولد من تشبيه ، بل من التقريب بين حقيقتين متباعدتين قليلا أو كثيرا ، فالتباعد بين الحقيقتين هو الذي يحقق للصورة شعريتها.

فالصورة الشعرية تقوم على خاصية التبعيد (écart) ، إذ يوفر لها قدرة على تكوين علاقات وتوليد دلالات مكثفة ويضع المعنى موضع الاحتمال ، لذلك فهي ضد ثبات المعنى ، وهو ما يجعل العالم الشعري في القصيدة المعاصرة عالما متخيلا، مفارقا لمرجعياته ، ليرتفع مستوى الغموض والدهشة والغرابة وتعدد الاحتمالات وتنوع الدلالات فيها.

ويلعب الخيال دورا مهما في تشكيل الصورة الشعرية المعاصرة لأنها تؤسس لعلاقات بين عناصر وأشياء قد لا توجد بينها علاقة إلا في خيال الشاعر، لذلك تتجاوز حدود الصورة القديمة القائمة على التشبيه والاستعارة والكناية – دون أن تغفلها– ، وتؤسس لأشكال وعناصر جديدة تختلف باختلاف تجربة الشاعر وروافده ، فلا توجد صورة واحدة بل صور متعددة .

إن مفهوم الصورة الشعرية عند رواد الشعر العربي الحر يتجاوز الصورة البلاغية لأنَّ الاستعمال المجازي للغة وسيلة من وسائل الصور الكثيرة. فالصورة عندهم تشمل الصورة البلاغية كما تشمل الصورة الرمزية والأسطورية، بل تتعدى ذلك لأنَّ الصورة رؤيا كلية. ويميز "علي البطل" بين مفهومين للصورة فيقول: "يتميز في تاريخ مصطلح الصورة الفنية مفهومان: قديم يقف عند حدود الصورة البلاغية في التشبيه والمجاز. وحديث يضم إلى الصورة البلاغية نوعين آخرين هما: الصورة الذهنية والصورة باعتبارها رمزاً" .

ويذهب عبد المعطي حجازي إلى أن هناك أنواعا كثيرة من الصور الشعرية وما الصورة البلاغية إلا نوع منها. بل إن الصورة قد تكون بالمفردات دون لجوء إلى مجاز لنقل جو معين أو وصف حركة معينة أو حالة نفسية، أو استحضار عناصر واقعية لعالم الطفولة وإعادة تركيبها في مشهد محدد.

2– خصائص الصورة الشعرية في الشعر العربي المعاصر :

إن الصورة الشعرية في الشعر المعاصر صورة ذاتية لا صورة واقعية، ومن ثمَّ لا يمكن إعادتها إلى مصدرها في الواقع. فهي صورة فنية تمثل عالماً مستقلاً بذاته، إنها خلق وليست

محاكاة. وقد ميز رواد الشعر العربي الحر بين الصورة الواقعية والصورة الشعرية. فبلند الحيدري يذهب إلى أن الصورة الشعرية ليست صورة فتوغرافية لأنها صورة الواقع كما يراها الشاعر لاكما هي في الحقيقة. فالذات المبدعة تتفاعل بأشياء العالم وتنتقي ثمَّ تعيد تشكيل صورة الواقع. والواقعية بهذا لا تعني مطابقة الصورة الشعرية للصورة الواقعية. الصورة الشعرية لا تقوم على محور واحد هو الواقع بمعطياته الحسية، وإنما ترتكز أساساً إلى محور الذات بأحاسيسها وأفكارها. الصورة بهذا نتاج لتفاعل الذات بالموضوع، لذلك تقدم شيئاً جديداً. ويبين الحيدري علاقة الفنان بالواقع فيقول: "الفنان الواقعي هو الفنان الذي أدرك موضوعه من خلال ثلاث صور متداخلة منها: تلك التي يتحسسها بعينه وهي صورة مسطحة، ومنها تلك المتمكنة بالرمز الذهني الذي تقوم عليه، والأخير من الصور الثلاث هي الصورة المكثفة بما تداخلت علاقتنا بها في صنعها أي الواقع كما هو وكما أراه وكما أريد أن أراه ، وإن أي عمل فني لا بد من أن يقوم على واقع عيني ظاهري، وواقع في الدلالة الرمزية، وواقع مكثف بما كان لنا من تعاطف معه أو موقف ضده" .

كما تتميز الصورة الشعرية المعاصرة بالغرابة ، ومصدر هذه الغرابة هو التكثيف أي رغبة الشاعر في أن يجمع كثيراً من الأشياء في عبارة واحدة. ولهذا ينشئ بينها من العلاقات مالا يوجد في الواقع ، والتكثيف لا يعني جمع الأشياء كما هي ولكن إيجاد علاقات جديدة بينها بعد انتقائها وتعديلها وحذف مالا يهم الشاعر منها ثمَّ إعادة تركيبها. وغرابة الصورة الشعرية من هنا ليست نقلاً للأشياء الغريبة في الحياة أو الخيال .

ومثلما تأخذ الصورة الشعرية بعض عناصرها من الواقع وتعيد تشكيله على ضوء رؤيا الشاعر كذلك تأخذ بعض عناصرها من اللاشعور، ويذهب البياتي إلى أنه يأخذ مادته من مكنونات اللاوعي، من عقله الباطن ، كما يأخذ مادته من عالم مجهول أيضاً حيث يقول: "أحس أحياناً أن أشياء لا أراها تتحرك حولي وتأتي من عوالم مجهولة، أحسها في الهواء والأصوات، وأراها بعين قلبي". فالصور لا تنبع من الحاضر فحسب، بل من الماضي ومن عوالم غيبية أيضاً.

ويذهب أدونيس إلى أن الإبداع الفني الخلاق إنَّما ينطلق من اللاشعور، عالم الرغبات والقلق والأحلام لا من عالم الشعور. فالشعور عنده يمثل الحياة اليومية أمَّا اللاشعور فهو الحركة التي تقابل الثقافة السائدة. وتتطلب هذه الحركة واندفاعها الأسمى لغة مغايرة للغة الثقافة السائدة. ومهمة الشاعر هنا هو "إبداع عالم يتطابق مع التطلعات الكامنة في اللاشعور ويكون امتداداً لها" .

ويسمى هذا النوع من الصور الذي يتكئ على اللاشعور والحلم والمجهول بالصور السريالية وهي ذات حضور مهم في الشعر العربي المعاصر وهي صور لا منطقية عصية على الفهم .

ومن خصاص الصورة الشعرية المعاصرة تداخل الحواس فيها وتجاذب معطياتها كأن تتداخل حاستا الإبصار والسمع ، يقول أدونيس :

رأيت النهار

جرسا يفتح الشبابيك والمدن المقفلة .

(فكلمة رأيت تدل على الإبصار وكلمة جرس تثير حاسة السمع).

فالصورة الشعرية في الشعر العربي المعاصر تتجاوز الصورة التقليدية القائمة على التشبيه والاستعارة والكناية – دون أن تغفلها – ، وتؤسس لأشكال جديدة استنادا إلى الرمز خاصة ، وهي تتميز بالتكثيف والدهشة والغرابة لأنها تجسيد لرؤيا الشاعر الذي يعبر عن اللاوعي والمجهول والحلم ، ويرى الواقع بنظرة مغايرة .